فِلْهَـــوْزِنْ

Von Julius Wellhausen

فلهوزن مستشرق ألمانى عاش ما بين ١٨٤٤ و ١٩١٨م، بدأ بدراسة اللاهوت ثم درس اللغات الشرقية وأتقن دراستها، وله مؤلفات كثيرة عن الإسلام بالألمانية، ترجم بعضها إلى اللغة العربية، وكان أكثر اهتمامه بالتاريخ الإسلامى، كما اهتم بدراسة الشعر العربى.

وقد اخترنا له كتابه «تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية "Das Arabische Reich und sein & turg" معتمدين فيه على الترجمة العربية الدقيقة التى قام بها الدكتور «محمد أبو ريدة» عن الألمانية – لغة الكتاب الأصلية – وصدرت فى مشروع الألف كتاب بالقاهرة ١٩٥٨ برقم (١٣٦) فى سلسلة المشروع.

والكتاب كبير الحجم، فهو يقع – فى الترجمة العربية – فى ٥٣٤ صفحة من القطع الكبير، بالإضافة إلى «فهرس الأشخاص» الذى يقع فى ١٨ صفحة، و«فهرس الأماكن والمواضع» الذى يقع فى ١٢ صفحة، و«فهرس الموضوعات والمواد» الذى يقع فى ٢٢ صفحة.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى «كلمة تمهيدية» فى تسع صفحات، يتحدث فيها المؤلف عن الروايات التاريخية التى تتعلق بالفترة التى يتناولها بالبحث، وعن منهجه الخاص فى التعامل مع هذه الروايات. ثم تسعة فصول تجرى على النحو التالى: الفصل الأول بعنوان «مقدمة» والثانى بعنوان «علىٌّ والحرب الأهلية الأولى» والثالث بعنوان «السفيانيون والحرب الأهلية الثانية» والرابع بعنوان «بنو مروان الأولون» والخامس بعنوان «عمر بن عبد العزيز والموالى» والسادس بعنوان «المروانيون المتأخرون» والسابع بعنوان «مروان بن محمد والحرب

الأهلية الثالثة » والثامن بعنوان « القبائل العربية فى خراسان » والتاسع بعنوان « سقوط الدولة الأموية » .

والذى يهمنا بصفة خاصة من هذه الفصول جميعا هو فصل المقدمة، لأنه – على صغر حجمه نسبيا، إذ يقع فى ٦٩ صفحة – هو الذى نفث فيه المؤلف معظم سمومه، بروح « علمية ! » خالصة، لا تفترق عن الروح « العلمية » التى شاهدناها عند مرجوليوث من قبل ! وإن كان اهتمامنا الخاص بفصل المقدمة وما يحويه من مغالطات علمية والتواءات، لا يصرف نظرنا عن « السم العام ! » المنفوث فى الكتاب كله، من أول اختيار الموضوع، إلى اختيار عناوين الفصول، إلى طريقة معالجة الموضوع، مما سنشير إليه فى نهاية الحديث عن الكتاب .

* * *

فى ص (٢) يتحدث المؤلف عن القرآن فيقول : « ويبرز فى لقرآن شأن القدرة الإلهية تارة، وشأن العدل الإلهى تارة أخرى، وذلك بحسب ما كان يحس به [النبى عليه السلام] دون مراعاة للتوازن بين الطرفين، ولا يشعر محمد [عليه السلام] (١) بما فى ذلك من تناقض لأنه لم يكن فيلسوفا ولا واضعا لمذهب نظرى فى العقائد (Dogmatiker) » .

وبصرف النظر عن كون المؤلف ينسب القرآن إلى الرسول ﷺ، وهو أمر يشترك فيه المستشرقون جميعا بطبيعة الحال، فإن المؤلف يضيف إلى ذلك أن هناك تناقضا وعدم توازن فى القرآن، لأنه يبرز شأن القدرة الإلهية تارة وشأن العدل الإلهى تارة أخرى ! ثم يرد ذلك إلى الحالة النفسية الخاصة التى يكون عليها الرسول ﷺ وقت « التاليف » ! ثم يقول إن الرسول ﷺ لا يشعر بذلك التناقض لأنه ليس فيلسوفا ولا مفكرا عقائديا !

والمؤلف هنا يثير مشكلة « كلامية » تتعلق بالجبر والاختيار، وكيف يكون الله سبحانه وتعالى « عادلا » إذا كان قد قدّر أعمال الإنسان، أو إذا كانت أعمال

---

(١) ما بين الأقواس هو من وضع المترجم بطبيعة الحال وليس المؤلف !

الإنسان لا تجرى إلا بقدره ومشيئته. وهى مشكلة «ذهنية» خاض فيها الكلاميون ووقفوا منها مواقف شتى، وليس من همنا هنا الحديث عنها ولا الخوض فى المواقف المختلفة منها. ولكنا نسأل فقط: ماذا فعل الفلاسفة والمفكرون العقائديون خلال التاريخ كله فى حل تلك المشاكل «الذهنية» أو «العقلية» التى يثيرونها فيما يتعلق بالذات الإلهية أو الصفات؟ وأين منهم – جميعا – من استطاع أن يقدم للناس فى شأن الألوهية كلاما أبسط وأوضح مما قدمه الإسلام؟ ثم – وهذا هو الأهم – من منهم جميعا استطاع أن يقدم للبشرية عقيدة فى الله – فوق وضوحها وبساطتها – تستطيع أن تكون قوة دافعة بانية مُرَشِّدَةً للإنسان، تعينه على القيام بمهمة الخلافة الراشدة فى الأرض كما فعل الإسلام؟ وماذا فعل أولئك الفلاسفة والمفكرون العقائديون فى واقع البشرية، وماذا قدموا لها من زاد تقتات به وتنشئ حياتها عليه؟! أفهذه المعاظلات الذهنية المعقدة الجافة المجردة هى الزاد الذى كان يريد المؤلف من الرسول ﷺ أن يتزود به وهو يدعو البشرية إلى الرشاد؟ وذلك بصرف النظر عن دعاوى المستشرقين فى أن محمدا عليه الصلاة والسلام هو مؤلف القرآن، فتلك – كما أشرنا من قبل – هى قولة الجاهلية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان!.

* * *

فى ص ٣ يقول المؤلف: «وكان أول من اتبع محمدا [عليه السلام] أفراد، من أصدقائه وأقربائه ومن الموالى والرقيق، غير أنه كان يعتبرهم طلائع لأتباعه، لأن طموحه كان منذ البداية متجها إلى ضم أهل مكة جميعا إلى دعوته: عشيرته من بنى هاشم وعبد المطلب، وقومه قريش. ولقد كان محمد [عليه السلام] عربيا، فكانت له، بحكم ذلك، إحساسات بالعشيرة والقبيلة ...».

دعوة الرسول ﷺ أهله وأقرباءه وقومه بادئ ذى بدء ناشئة إذن من كونه ﷺ عربيا، له إحساسات خاصة بالعشيرة والقبيلة!

وبصرف النظر عن كون الرسول ﷺ لم يتصرف فى هذا الأمر من عند

نفسه وإنما طاعة للوحي الرباني: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهي قضية لا يؤمن بها فلهوزن ابتداء – فأي نبي في التاريخ كله – عربيا أو غير عربي – بدأ بغير قومه الأقربين؟! وما صلة ذلك بالطبيعة العربية للرسول ﷺ؟! بل أي داعية في الأرض كلها، لأي دعوة كانت، بدأ بغير قومه الأقربين؟! وما مجال التعليق على هذه النقطة وهي ظاهرة طبيعية مكررة على مدى التاريخ؟!

إنما يريد المؤلف، العالم النزيه، ذو النزعة الموضوعية [١]، أن يقول إن الإسلام – منذ حركته الأولى – مصطبغ بالصبغة العربية، لأنه دين من صنع العرب، وللعرب، وليس مصطبغا بالصبغة «الإنسانية» العامة التي يقررها القرآن حيث يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]

* * *

في ص (٤) يقول: «ولقد كان في وسع محمد [عليه السلام]، من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التي ترسمها رابطة الدم، أن يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة، هذا هو الذي جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها. ولكن محمدا [عليه السلام] لم يرد ذلك، ومن الجائز أيضا أنه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم، ولذلك فإنه لم ير أن رسالته هي أن يضم إلى دعوته أتباعا متفرقين هنا وهناك».

محمد عليه الصلاة والسلام لم يرد إقامه رابطة عقدية أوسع من رابطة الدم، وربما لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان وجودها! هذا هو الذي يقوله العالم الفذ، المؤرخ! الذي يتعامل مع تاريخ الإسلام!!

ومهما تصورنا من إمكان جهل «العالم البحاثة» بوقائع التاريخ الإسلامي،

---

(١) نردد هنا ما يقوله تلاميذ المستشرقين من «المسلمين!» عن أساتذتهم المستشرقين.

فلا يمكن بحال أن نتصور جهله بالوقائع الأولية التي يعرفها تلاميذ المدارس الابتدائية، من أن بلالا العبد الحبشي كان من بين المسلمين الأوائل في مكة، وكانت حفاوة الرسول ﷺ به بالغة، وكذلك مولاه زيد، الذي تبناه الرسول ﷺ حتى نزل أمر الله بإبطال التبني، أفكان هذا تعبيرا عن عجز الرسول ﷺ عن إدراك إمكانية قيام رابطة عقدية أوسع من رابطة الدم، أو تعبيرا عن عدم إرادته عليه الصلاة والسلام ذلك؟!

ويعرف تلاميذ المدارس الابتدائية كذلك أن الرسول ﷺ آخى في المدينة بين بلال بن رباح وخالد بن رويحة الخثعمي وبين مولاه زيد وعمه حمزة، وبين خارجة بن زيد وأبي بكر، وأنه قال عن سلمان الفارسي «سلمان منا آل البيت».

فهل كان هذا هو التعبير عن عجز الرسول ﷺ عن التصور، أو عدم رغبته فيه؟!

أم إنه الالتواء المقصود، الذي لا يصدر عن جهالة ولكن عن حقد مسموم؟!

إنه يقول ما يقول إشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾ [الأنفال: ٧٥] فهل هذا التوجيه من القرآن الكريم تحديد لرابطة العقيدة برابطة الدم؟ أم هو تقوية لرابطة الدم في ظل العقيدة؟!

أوليس القرآن هو الذي يقول: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠]

فيقرر أخوة المؤمنين جميعا على أساس العقيدة؟

أو ليس القرآن هو الذي ينهى عن إقامة رابطة الدم إذا خرجت على العقيدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ**

وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة: ٢٣ - ٢٤]

بلى! ولا يجهل العالم الكبير ذلك! ولكنه مصداق قول الله عز وجل: ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ [البقرة: ١٢٠] وقوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ [البقرة: ١٤٦]

* * *

في ص (٥) يقول: « وأخيرا وضع قدمه في يثرب، أعني المدينة، وكانت هجرته إليها حادثا جليلا، بدأ به عهد جديد، على أن هذا العهد الجديد لم يكن معناه التنصل من الماضي تنصلا مقصودا، لأن محمدا [عليه السلام] لما صار رئيسا سياسيا بعد أن كان مبشرا ونذيرا لم يتنكر لنفسه، وذلك أنه منذ البداية لم يكن يرمي إلى اجتذاب أفراد، بل إلى ضم القبائل بجملتها؛ وكان من أول الأمر أيضا يرى أن النبي هو الرسول الذي يرسله الله ليكون على رأس قومه، ولم يكن يفصل بين الجماعة السياسية والجماعة الدينية. وهو إذا كان قد أراد أن يظل في المدينة على ما كان عليه في مكة من قبل، وهو أن يكون نبي الله ورسوله، فلم يكن ذلك منه لعبا ولا نفاقا، لكنه في مكة لم يوفق أما في المدينة فقد نجح وشق الطريق ».

أرأيت إلى الإنصاف الهائل العميق الذي أضفاه المؤلف العظيم على رسول الله ﷺ ؟! لم يكن الأمر لعبا من الرسول ﷺ ولا نفاقا !! إنما كان الرسول ﷺ جادا في « دعواه »!!

أرأيت إلى قوله: « ... إذا كان قد أراد أن يظل في المدينة على ما كان عليه في مكة من قبل، وهو أن يكون نبي الله ورسوله ... » كأنما الأمر من عند نفسه ﷺ، يريد أولا يريد! مرة - إذا شاء - يكون نبي الله ورسوله، ومرة - إذا شاء -

يتخلى عن النبوة والرسالة ويكون حاكما فحسب! ولكن المؤلف الكبير – والحق يقال – يقرر للرسول ﷺ ثباته على المبدأ، وعدم رغبته فى التخلى عن أن يكون نبىّ الله ورسوله!

هل تريد إنصافا أكبر ولا أعظم من هذا الإنصاف؟!

* * *

فى ص (٥، ٦) بعد الكلام السابق مباشرة: «هو كان فى مكة ثائراً على قومه مخالفا لما هم عليه، أما فى المدينة فقد بلغ ما كان يرمى إليه، وقد أحدث هذا تغيراً كبيرا، لا مجرد فرق ظاهرى، وذلك أن المعارضة دائما تتغير عند ما تصل إلى الرياسة، وأن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيرا عن الفكرة التى قامت عليها ... وهذا هو الذى يفسر لنا أن النبى لما صار رئيسا سياسيا تغير عما كان عليه لما كان لا يزال طامحا فى الرياسة، وأن الحكومة الثيوقراطية (Theokratie) من حيث السياسة الفعلية تغيرت عنها لما كانت فكرة. وعلى هذا صار الطابع السياسى يزداد بروزا والطابع الدينى يزداد تراجعا. ولكن على الإنسان مع هذا ألا ينسى أبدا أن الدين والسياسة امتزجا وسارا يدا بيد، وإن كان قد جُعلَ تمييز بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية، وبقى للتقوى إلى جانب ذلك مكانها فى القلوب».

حشد من المغالطات العلمية والتاريخية والتناقضات الظاهرة يملأ تلك السطور القليلة من حيث يدرى أو لا يدرى العالم الكبير!

ففى الصفحة الخامسة كان يقول ما أثبتناه فى الفقرة السابقة: «لأن محمدا [عليه السلام] لما صار رئيسا سياسيا بعد أن كان مبشرا ونذيرا لم يتنكر لنفسه ...» وهنا يقول: «... أن النبى لما صار رئيسا سياسياً تغير عما كان عليه لما كان لا يزال طامحا فى الرياسة ...» فأيهما نصدق؟!

ثم يقول: «... وأن الحكومة الثيوقراطية من حيث السياسة الفعلية تغيرت عنها لما كانت فكرة» فما هو التغير الذى حدث؟ إنه كما يصفه فى

العبارة التالية: «وعلى هذا صار الطابع السياسى يزداد بروزا والطابع الدينى يزداد تراجعا» فأى دليل يقدمه – من حياة الرسول ﷺ – يثبت به هذه القضية؟ لا شئ! إنما عليك أنت أيها المسلم أن تراجع تاريخ نبيك ﷺ بروح التشكك التى ألقاها إليك العالم الكبير، بعد إذ كنت تنظر إليها على أنها حياة مثالية لا يتسرب إليها الشك! عليك أن تنظر فى وقائع السيرة النبوية الشريفة عن وقائع المفارقة بين النظرية والتطبيق! فإذا لم تجدها فراجع نفسك! لعلك متعصب! يعمى التعصب عينيك عن حقائق التاريخ، التى رآها – ولم يصرح بها – ذلك العالم الكبير!!

ثم هذا الالتواء فى التعبير، الذى لا تستطيع معه أن «تضبطه» فى نقطة ثابتة.

ازداد الطابع السياسى بروزا وازداد الطابع الدينى تراجعا.

الدين والسياسة امتزجا وسارا يداً بيد.

جُعلَ تمييز بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية.

بقى للتقوى إلى جانب ذلك مكانها فى القلوب.

أين يقف المؤلف بالضبط بين هذه المتناقضات المتوالية فى جملة واحدة؟!

وهل هذا أسلوب عالم «مدقق»؟! أم رجل سياسة – على الطريقة الجاهلية – يتلاعب بالألفاظ؟!

هذا وهو ذاته يقول فى ص (١٠): «ولم تكن بين المسلمين طبقة من الرهبان، ولا كان هناك تمايز بين الرهبان وبين غيرهم، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية»!!

فكيف بالله توفق بين قولتى العالم الكبير فى فصل واحد: «جُعِلَ تمييز بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية» «ولا كان هناك تمايز ... بين الأمور الدينية والدنيوية»؟! وقوله بعد ذلك فى ص (٥٩) من نفس الفصل: «وميدان النشاط الدينى هو السياسة، وهذا هو معنى الحكومة الثيوقراطية»؟!

وهذا الذى يلتوى ويتلوى على هذه الصورة ... هو «الأستاذ» الذى يتلقى عنه التلاميذ من «المسلمين!».

* * *

فى ص (٧) يقول: «... ولما كانت لحمة الدم قد فشلت فى أن تكون رباطا يؤلف بين الناس (١) فقد أحلّ النبى محلها رابطة العقيدة!

هكذا! رابطة العقيدة جئ بها بسبب فشل رابطة الدم! لا لأنها الأصل الذى يقوم عليه هذا الدين!!

وهل كانت رابطة الدم ناجحة فى مكة بين الرسول ﷺ وقريش؟! فلماذا جئ برابطة العقيدة فجأة فى المدينة فقط، مع أن موجباتها كانت موجودة فى مكة؟!

هذا إذا سلمنا جدلا بهذا «الاجتهاد» العميق الذى يفسر به العالم الكبير أحداث التاريخ! وإلا فقد كانت العقيدة هى الآصرة من قبل ومن بعد فى كل حركة تحرك بها هذا الدين.

* * *

فى ص (٩) يقول: «والذى كان راجحا فى فكرة الألوهية هو العدل لا القداسة».

المسلمون يحسون بالعدل الإلهى ولكنهم لا يقدسون الله ... تقدست أسماؤه وله الأسماء الحسنى.

هل ثمت دليل – من القرآن أو من واقع المسلمين – يقدمه العالم الكبير؟!

* * *

فى ص (١١) يقول: «ومبدأ المساواة السياسية بين المسلمين، وهو المبدأ

---

(١) يقصد فى المدينة.

الذى يلزم من فكرة الحكومة الثيوقراطية، لم يطبَّق على النحو الذى من شأنه أن يمحو الفوارق التى كانت موجودة بالفعل، فبقى المكيون الذى جاءوا مع النبى [عليه السلام] وهم المسمون المهاجرة، على حدتهم، وبقيت إلى جنبهم قبائل العرب التى كانت تسكن المدينة، وهم المسمون الأنصار، على حدتها، وكذلك بقيت قبائل اليهود فى المدينة على حدتها، وبقى التابع تابعا والمولى مولى والنزيل نزيلا، وإن كانوا قد اعتنقوا الإسلام».

أرأيت إلى هذه «الضبطية» الخطيرة التى ضبطها العالم الكبير فى تاريخ الإسلام؟!

أرأيت – أيها المسلم – كم كنت غافلا عن وقائع تاريخك وأنت تحسب أن المساواة السياسية قد طبقت فى صدر الإسلام؟! قم منذ هذه اللحظة راجع تاريخك ... راجعه بروح التشكك فى كل ما يقوله لك المؤرخون والكتاب المسلمون ... فقد أعماهم التعصب عن هذه الحقائق الخطيرة التى تفتحت لها بصيرة العالم البحاثة الخطير!

يكشف العالم الخطير بادئ ذى بدئ عن نفثة مسمومة إذ يريد أن يمنح الإسلام اليهود المساواة السياسية مع المسلمين فى المدينة! ذلك وهم يحاربون الإسلام ويناوئونه بكل ما أوتيت عبقريتهم من شر، ويحاولون قتل الرسول ﷺ مرتين، مرة بإلقاء الحجر عليه، ومرة بدس السم له فى ذراع الشاة! ويعلنون عدم إيمانهم برسول الله ﷺ وإصرارهم على الكفر بما جاء به من عند الله!

أما تفضيل المهاجرين فيعلم سببه كل من يعرف شيئا على الإطلاق من تاريخ هذا الدين، فيعلم أنهم هم الذين احتملوا العذاب كله إزاء ضغط الجاهلية العنيف فى مكة ... فكان من حقهم أن يكونوا «سابقين» فى كل أمر كما كانوا سابقين إلى الإسلام وإلى احتمال الأذى فى سبيله، دون أن ينقص الإسلام من حقوق الآخرين.

وأما الموالى، الذين يلتوى الكاتب بذكرهم ليغمز بهم الإسلام ... فكيف كان وضعهم فى المدينة؟ أليس زيد – المولى – هو الذى ولاه الرسول ﷺ قيادة جيش من المهاجرين والأنصار؟ وحين قتل ولى ابنه أسامة بن زيد قيادة جيش فيه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وهما من هما فى القمة من المهاجرين وفى القمة من قريش؟

أو ليس زيد كذلك هو الذى زوجه الرسول ﷺ بنت عمته زينب بنت جحش القرشية؟!

وفلهوزن لا يجهل ذلك كله لأنه «مؤرخ» يؤرخ للإسلام ... ولكنه الالتواء الذى تمليه الأحقاد.

* * *

فى ص (١٥) يقول: «ولم يبق الإسلام على تسامحه، بل شرع فى الأخذ بسياسة الإرهاب فى المدينة»!

هكذا: الإرهاب! الإرهاب ضد من؟ يقول فى السطر التالى: «فلم يسمح للمشركين بأن يبقوا داخل الأمة على شركهم، كما كان الحال حتى ذلك الحين».

يا سبحان الله! المطلوب من الإسلام أن يبقى على الشرك فى داخل قاعدته التى ينطلق منها، وإلا فهو يسير على سياسة الإرهاب! يسمح بالتخريب فى قاعدته وإلا فهو مستبد!

حقيقة إنه من قبل لم يتعرض لهؤلاء المشركين، لأن مركزه الحربى لم يكن يسمح بالقتال، لا لأن ذلك أصل من الأصول التى ينبغى أن تراعى! فإذا جاءت القوة فلا يجوز السكوت على هذا الأمر، لا لأن القوة قد غيرت «المبادئ» ولكن لأنها قد أوجدت الإمكانيات العملية للمبدأ الذى ينبغى العمل به، وكان معطلا بسبب الملابسات.

على أن الذى يوجع المؤلف حقا، ويتمحك بذكر المشركين مجرد تمحك لتغطيته هو أمر اليهود!

يقول فى نفس الصفحة: «ولكن موقف اليهود كان أسوأ من موقف المنافقين ... وحاول محمد [عليه السلام] أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد. وفى غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قضى عليها فى الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكونون جماعات متماسكة كالقبائل العربية. وقد التمس لذلك أسبابا واهية ...».

ولا يجهل أحد فى التاريخ ما فعل اليهود فى المدينة، ولا أنهم هم الذين نكثوا العهود مع المسلمين ... ولكن هل تتوقع من الكاتب الكبير أن يرضى عن الإسلام وهو يعاقب اليهود على الشر الذى ارتكبوه؟

* * *

فى ص (١٧) يقول: «وفى أثناء هذا الصراع الذى كان دائرا فى الظاهر بين الإسلام وبين الوثنية العربية تم على نحو يستلفت النظر تعريب داخلى للإسلام نفسه. وقد كانت نقطة البداية فى دعوة محمد [عليه السلام] اقتناعه فى أول الأمر، بأن ما جاء به من دين يتفق مع اليهودية والنصرانية، فكان ينتظر طبقا لهذا الاقتناع أن يهود المدينة سيستقبلونه مرحبين. ولكنهم لم يعترفوا له بأنه نبى، ولم يعترفوا بأن الوحي الذى أنزل إليه هو الوحى الذى عندهم ... وعلى هذا خاب أمله فى اليهود خيبة مريرة. ولما كانوا لم يعتبروا اليهودية مثل الإسلام، بل جعلوا منها خصما له، فإنه من جانبه جعل الإسلام خصما لليهودية ثم خصما للنصرانية أيضا ...»!

ثم يقول بعد كلام آخر، لا يقل عن ذلك سخفا، فى ص (١٩): «... وبذلك انتزع إبراهيم، أبو التوحيد، من اليهود وجعل مؤسسا لإسلام عربى قبل الإسلام، واعتبرت مكة هى مركز هذا الإسلام. ومن هذا الطريق فُصِل الإسلام عن اليهودية فصلا نهائيا وجعل دينا عربيا قوميا»!

الذى يوجعه دائما هو اليهود! وموقف الإسلام من اليهود ... ومن هذه الوجيعة التى تملأ قلبه بالحقد يروح يصور الرسول ﷺ فى هذه الصورة المشوهة، صورة السياسة المكيافلية الانتهازية المتقلبة التى لا مبدأ لها تثبت عليه، والتى تبرر الوسيلة بالغاية ... وتجعل الغاية هى إرضاء الهوى الشخصى والنزوات الشخصية ... التى تعيب الشخص العادى لو اتصف بها، فضلا عن الرسول.

والأدلة؟!

لا شئ على الإطلاق ... أو قلب الحقائق وليها لتتفق مع الهوى والأحقاد! ثم يتتلمذ «المسلمون» على أحقاد المستشرقين!!

* * *

فى ص (١٨) يقول: «وأصبح الحج إلى الكعبة، بل تقبيل الحجر المقدس، من الشعائر الدينية المفروضة، وبذلك دخل فى الإسلام مركز للشعائر وعيد وثنى شعبى، وكان لا بد فى تبرير هذا الصنيع من الاستشهاد بالتاريخ، كما هى العادة، فقيل إن البيت الحرام فى مكة والشعائر الدينية المكية كانت فى أول الأمر للتوحيد وإن إبراهيم هو الذى أسسها، ولكنها بعد ذلك فسدت وصارت وثنية» ثم تجئ بعد ذلك مباشرة العبارة التى أثبتناها فى الفقرة السابقة ص (١٩): «وبذلك انتزع إبراهيم، أبو التوحيد، من اليهود ...».

ومثل هذا التبجح ليس كلاما علميا حتى يناقش مناقشة علمية ... إنما هو تبجح فحسب. ولكنا نناقشه مناقشة سريعة لا من أجله فى ذاته – فهو لا يستأهل المناقشة – ولكن لأن بعض «المسلمين!» من تلامذة أولئك المستشرقين يرددونه بين الحين والحين.

يقول المؤلف إن الرسول ﷺ حين خاب أمله فى اليهود حول الإسلام دينا «عربيا!» وجعل الكعبة بدلا من بيت المقدس، ثم أدخل عبادة «وثنية» هى الحج ضمن شعائر الإسلام!

فأما تحويل القبلة فقد تحدث القرآن عنه: ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا** ﴾ [البقرة: ١٤٢] ووصف القرآن يغنينا عن كل قول.

وأما إدخال العبادة «الوثنية» ضمن شعائر الإسلام بسبب اليأس من اليهود فلنا فيها – لا من أجل المستشرقين ولكن من أجل «المسلمين!» – ملاحظتان:

الأولى: أن القول بأن إبراهيم هو الذى بنى الكعبة، وأن شعائر الحج هى هى التى كان يقوم بها إبراهيم عليه السلام، لم ينشأ من ذكر ذلك فى القرآن – الذى يزعم فلهوزن أنه من صنع محمد عليه الصلاة والسلام – إنما هذا تاريخ معروف عند العرب ومتداول بينهم قبل القرآن بقرون طويلة. وكان الرسول ﷺ – بوصفه عربيا ومكيا من قريش – يعرف هذا التاريخ كما كان العرب كلهم يعرفونه. فهو ليس شيئا مفاجئا اخترع فى المدينة للرد على موقف اليهود كما يزعم ذلك العالم الكبير المتجرد للحق!!

والثانية: أن الإسلام لم يأخذ الشعائر الجاهلية ثم يدخلها ضمن شعائره، فى الحج أو فى غيره من الأمور، كما يتردد ذلك على لسان بعض «الباحثين!» «المسلمين» الذين يستمدون بحوثهم «القيمة» من أفواه أولئك المستشرقين.

لقد كان الحج شعيرة «إسلامية» بدأها النبى المسلم إبراهيم عليه السلام وحافظ العرب عليها حتى وهم ينزلقون إلى الوثنية حتى يستقروا فيها. فإن سترد الإسلام شعائره يقال إنه أقر العرب الجاهليين عليها و«اعتمدها»؟! ثم إن العرب فى جاهليتهم أدخلوا فى هذه الشعيرة الإسلامية كثيرا من الخبائث، فجاء الإسلام لينقيها من خبثها ويعيدها سيرتها الأولى كما كانت على عهد إبراهيم عليه السلام. فأزال الأوثان من الكعبة أولا، وألزم قريشا أن تحافظ على الشعائر

فقال: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩] وكانت قريش تستكبر أن تفيض من حيث أفاض الناس، ثم منع أحداً أن يحج وهو عريان كما كانت قريش تفعل فى الجاهلية.

فالإسلام لم «يعتمد» عرفا جاهليا ولا عبادة جاهلية على قاعدة جاهلية كما يردد بعض «المثقفين» وما كان له أن يصنع ذلك. إنما كان يرد الأمور كليا - ولو بقيت صورتها الخارجية - إلى التصور الجديد .. التصور الإسلامى الصحيح.

* * *

فى ص (٢٢) يقول عن الرسول ﷺ: «... وليس ما يدعو الإنسان لأن يعيب عليه أنه حقق إنشاء مملكة الله [فى الأرض] على الأساس الطبيعى الذى وجده أمامه. فهو وإن كانت الضرورات العملية، فى كثير من الأحيان، قد اضطرته أو هى انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدسة، من غير أن يسند ذلك إلى الله، فلا يسوغ لمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقا»!!

مرة أخرى ... يا للإنصاف! النبى كان ميكيافيليا ... ولكن لا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقا!

والمسلمون يعتقدون أن كل أقواله وأفعاله ﷺ كانت بوحى من الله، وما كان منها مخالفا فقد عاتبه الله عليها ووجهه لتصحيحها، كما حدث فى شأن أسرى بدر، أو شأن ابن أم مكتوم ... ولكن العالم المجتهد يقول إن الرسول ﷺ كان يتصرف تصرفات ميكيافيلية، ثم يتحمل تبعتها الشخصية ولا يسندها إلى الله !!

والأدلة يا سيادة العالم الكبير ... ؟؟

* * *

فى ص (٢٣) يقول: «ولم يكن الجهاد لنشر الدين أكثر من ذريعة وتعلة

للحرب، كما لم تكن دعوة أعداء الله إلى الدخول فى الإسلام قبل محاربتهم إلا مسألة شكلية »!

وعبثا نسأل المؤلف الكبير عن الأدلة على ما يقول ... فليست هناك أدلة بطبيعة الحال إلا إرواء حقد كامن فى النفوس.

فكل تلك الأمثلة التاريخية الرائعة لأولئك الذين كانوا يحرصون على الموت لينالوا الشهادة فى سبيل الله، يمحوها الكاتب الكبير بجرة قلم فى عبارة من نصف سطر! ليضع مكانها أنها كانت مجرد تعلة للحرب!

والدعوة إلى الإسلام قبل القتال كانت شكلية ... لأنه - كما يقول بعدها - « لم يكن ينتظر منهم أن يلبوا هذه الدعوة حقيقة »! أرأيت المنطق؟!

وماذا يصنع لهم الإسلام والمسلمون أكثر من أن يعرضوا عليهم الأمر؟!

وهل حدث مرة واحدة فى التاريخ أن قبل قوم الإسلام ثم حاربهم الإسلام لحرصه على الحرب؟!

* * *

وأخيرا نصل إلى هذه العجيبة فى ص (٣٢) : « وكان أبو بكر وعمر يعلمان أنهما لم يتوليا الخلافة بفضل حق شرعى، بل من طريق الاغتصاب »!

ماذا تقول لرجل يقول هذا الكلام؟ أتناقشه؟! وبأى منطق تناقشه يا ترى؟!

أبو بكر وعمر اغتصبا الخلافة ... ويعلمان ذلك!

يقول: « وهما لم يستطيعا أن يسبغا على رياستهما، التى كانت غير شرعية فى أول الأمر، ثوبا شرعيا إلا فيما بعد، وذلك بأن سارا فى الحكم على المبادئ التى تقضى بها الحكومة الثيوقراطية »!

أى أن خلافة كل منهما ظلت غير شرعية، والمسلمون ساكتون على

عدم شرعيتها، حتى تبين لهم أنهما يسيران على كتاب الله وسنة ورسوله، فأغمضوا أعينهم على عدم الشرعية الذى كان فى البدء، ورضوا بما رأوه من السلوك!

ولو أنه كان يردد قول الشيعة فى أحقية علىّ رضى الله عنه لفهمنا . . . ولكنه يطلقها عامة! أى أنها مغتصبة من المسلمين جميعا، وهم -- مساكين -- غير شاعرين بذلك، حتى يجئ فلهوزن بعد ثلاثة عشر قرنا كاملة فينبههم إلى ما كانوا عنه غافلين!!

* * *

هذا السم كله – وأكثر منه مما لم نعرض له – فى فصل واحد من الكتاب! ومنه ينطلق ليتحدث عن تاريخ الإسلام!

لذلك كان عجيبا غاية العجب فى حسى أن يقول المترجم (وهو رجل فاضل فى ذاته ولا نزكى على الله أحدا) عن هذا المؤلف بالذات أمثال هذه الأقوال:

«برهن فلهوزن، بهذا الكتاب، على أنه مؤرخ من الطراز الممتاز»! (ص د).

«وهو قد استقبل البحث من غير تعصب، وخصوصا من غير مجموعة الأفكار التى يقبلها بعض الباحثين مقدما، فتفسد عليهم تصور الوقائع وفهمها، وتقديرها التقدير الصحيح، وإنما كانت طريقته أن يستوحى النصوص، لا أن يحاول بكل الوسائل أن يستغلها فى إثبات آراء أو فروض قد بدأ بها من عنده»! (ص هـ).

«كان فلهوزن عالما يتمسك بروح البحث العلمى ويعتد بالوقائع»! (ص هـ).

«والحق أن فلهوزن فى كتابه الذى نقدمه اليوم لقراء العربية، قد جمع بين الجهد العلمى و العمق والعدالة إذا قورن بغيره»! (ص و)

نعم كان ذلك عجيبا غاية العجب فى حسى ، لأن المترجم الفاضل لم يغفل عن مواضع الانحراف فى تفكير فلهوزن، وعلق عليها جميعا فى مواضعها، أو على معظمها، ... فكيف بالله يصفه بكل تلك الصفات، وهو يرى ما يقع فيه من انحرافات؟!

شئ واحد هو الذى بهر المترجم فجعله يغفل عن الدوافع الحقيقية وراء هذا الكتاب: ذلك هو الجهد « العلمى » الذى بذله المؤلف فى تحقيق النصوص وترجيح الروايات.

ونسلم جدلا بأنه كان بارعا أقصى درجات البراعة فى هذا الجهد «العلمى» ... أفما نسأل أنفسنا – بعد قراءة فصل المقدمة السالف الذكر – فيم أجهد نفسه فلهوزن كل هذا الجهد فى دراسة تاريخ الإسلام؟!

إن هناك أمرا واضحا جدا لا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا ونحن نقرأ الكتاب.

إن هذه الروح المسمومة التى صبها فى فصل المقدمة، هى المنطلق الذى ينطلق منه ليتحدث عن التاريخ الإسلامى.

لقد تقول على الرسول ﷺ ما تقول، ووصفه بالسياسة الميكيافيلية التى تبرر الغاية بالوسيلة.

ثم من هنا ينطلق ليقول: إن كل التاريخ الإسلامى هو هذه الميكيافيلية التى بدأ بها الرسول ﷺ!

فهى إذن من الإسلام شئ لا يستغرب، ولو خالفت كل الدعاوى « لنظرية » للإسلام!

فأى تشويه لتاريخ الإسلام كله أسوأ ولا ألأم من هذا التشويه؟

إننا نقول – كما يقول كل دارس للتاريخ الإسلامى – إن تاريخ بنى أمية كانت فيه انحرافات عن الإسلام. ولكن المؤلف الخبيث – بفصل المقدمة – يوحى إليك أنه لا انحراف! إنه هكذا الإسلام ... حتى فى أصفى عصوره ... حتى فى

عصر الرسول ﷺ! فهل يبقى لك اعتزار بالإسلام وبتاريخ الإسلام بعد أن «تكتشف» هذه «الحقيقة» التى يكشفها لك العالم الكبير؟!

وتاريخ بنى أمية – الذى اختاره المؤلف ليكون موضوع بحثه لغاية فى نفس يعقوب – فيه ولا شك أعمال تخالف مبادى الأخلاق والدين ... ولكن لا تاريخهم كله كان انحرافا، ولا تاريخ الإسلام كذلك. ولكن تركيز المؤلف الشديد عليه لم يكن لوجه العلم، ولا لوجه الله ....

إنه إبراز لأسوأ ما فى تاريخ الإسلام على أنه هو تاريخ الإسلام ... بل على أنه هو طبيعة الإسلام!

ولقد قلنا من قبل – ونحن نتحدث عن مرجوليوث – إن انحراف التاريخ السياسى للمسلمين لم يلغ الإسلام من الأرض ولم يكن انحرافا للواقع التاريخى كله ... فقد بقى من حقيقة الإسلام ما ذكرناه هناك.

ولكن المسلمين مع الأسف – حتى الطيبون منهم كمترجم هذا الكتاب – تأخذهم دوامة الإعجاب بالمستشرقين فيغفلون عن هذه السموم التى يبثونها فى ثوب زائف من «العلم» و«البحث» و«التدقيق».